الطويل ، اجتذب الجليل العديد من هذه الفئات ، نظرا لتضاريسه الجبلية المبتورة ، حيث وجدت تلك الجماعات المطاردة ملجأ امينا · ولذلك عرفت المنطقة قديما باسم « جليل الشعوب » · أما اخر من قدم الى معليا ، فقد تكنوا باسم « شوفاني » · نسبة الى موطنهم الاصلي ،الشوف ·

ومنذ ان استقروا بها ، والى يوم سقوطها في يد الهاغاناه ، تعاقب في معليا خمسة اجيال من الشوافنة · كان جدي الثالث هو الذي قدم اليها على رأس حمولته ، وبنى له بيتا في القلعة ، وحوله جماعته · فصارت القلعة حارة ، واسموها « حارة الشوافنة » · ولتلك الحارة / القلعة مدخل واحد ، يمكن قطعه بسهولة ، فتنقلب الى حصن منيع · هكذا ارادوها عندما بنوها على الانقاض ، مستطيلة ، طبقا لتضاريس سور القلعة الداخلي ، الذي شيدت البيوت على ظهره · وكان عدد تلك البيوت كعدد فروع الحمولة ، ملتصقة بعضها ببعض التصاق الناس بنسبهم · وعندما وصلت الى معليا عائلات مسيحية اخرى ، بنت لها بيوتا في الربض ، داخل السور الخارجي للقلعة · وعندما ضاقت الحارة بسكانها ، رحل عنها من ملك المال اللازم لبناء بيت جديد · هكذا فعل جدي الاول ، واختار جوار الجامع ، القائم على طرف السور الخارجي ، من الجنوب ·

وكان المعليون كغيرهم من ابناء الريف الفلسطيني ، عشائريين ، يتزاوجون فيما بينهم ، ويفضلون الزواج من الاقارب · فنشأت خلال قرن من استقرارهم في معليا ، لحمة من صلة الرحم بينهم ، زادت من عصبيتهم القبلية ، القائمة على الانتماء الى الدين والعشيرة · وصار الجميع عصبة ، يتحملون وزر فدية الدم ، ويقتسمون دية المغدور منهم · هكذا حدث عندما وقع الثأر مع قبيلة السويطات البدوية المجاورة · وكان المعليون يواجهون اي عدوان خارجي كوحدة قبلية طائفية متماسكة · الا ان ذلك لم يمنع الصراعات الداخلية ، على الزعامة والجاه والمال والشرف والعرض ··· الخ · ولكن هذه الصراعات ظلت دون سقف سفك الدماء · كانوا يقتتلون فيما بينهم ، فيشتبك البعض ، ويتوسط الآخرون لفك الاشتباك وتسوية الخلافات · والصلح سيد الاحكام · وكان موسم العيد الكبير ، عيد الفصح ، فرصة سنوية للمصالحة العامة على ما تراكم خلال العام المنصرم من منازعات ، لتعود وتبرز من جديد بعد العيد ، وهكذا دواليك · وبين كر هذه العائلة وفر تلك ، عاشت القرية في دوامة من « الطوشات » و « الصلحات » استنزفت قسطا وافرا من جهد الناس واوقات عملهم · ومع ذلك ، فلولا هذه الدوامة ، لظلت الحياة في القرية بلا لون ، ولا رائحة ، ولا طعم ·

وعلى اي حال ، فقد ظل بيتنا ، على الاقل منذ ان بدأت اعي ما يدور فيه ، في مركز تلك الدوامة من العلاقات الاجتماعية في القرية · فعندما ينشب خلاف